تمردات وثورات الإنكشارية في تونس
خلال عهد الأسرة المرادية والنصف الأول من عهد الأسرة الحسينية
(1631 م – 1831 م)

د. ابراهيم حسين عبدالله
قسم التاريخ/ كلية الآداب/ الجامعة الأسمرية الإسلامية

مقدمــة :

عرفت تونس كغيرها من الولايات العثمانية نظام الجيش الإنكشاري الذي قام بدور بارز في إرساء الحكم العثماني خلال السنوات الأولى من عثمنة إيالة تونس والاعتماد عليه كلياً في حفظ الأمن وتوطيده داخل هذه الإيالة، ومع تعاقب الأيام ارتقى داياته إلى الحكم وأصبحوا على رأس السلطة في البلاد ، وغدت الأمور بيد الإنكشارية التي أصبحت مركز قوة خطير في الإيالة لدرجة أن السلطان الحاكم لم يكن يصل العرش إلا تحت سيوف الإنكشارية، غير أن تطلعاتها سارعت في إزالة حكم الدايات في العقد الثالث من القرن السابع عشر، وتولي المراديون الإدارة باسم البايات وبذلك ضعف نفوذ الإنكشارية وأعلنت عداءها للنظام المرادي محاولة استعادة نفودها في الإيالة فاتخذت من أسلوب التمرد والثورة وسيلة لتحقيق ما أرادت بلا خوف ولا حساب، والتي كانت في البداية كشعلة صغيرة في الهشيم، وتزايدت بشكل أكبر عندما استقلت الإيالة عن الباب العالي خلال عهد الحسينيين في العقد الأول من القرن الثامن عشر الذين أنهوا تماماً دورها كقوة فاعلة وصاحبة نفود، وكانت هذه الحادثة بمثابة إعلان لنهاية عناصر الإنكشارية الذين وصلوا إلى أسوء أحوالهم فكانوا في هرج ومرج يسرحون في الإيالة ويمرحون أخذين الرشوة والأعطيات والضرائب بل والنهب والسلب وكل ما يريدونه دون رادع ناهيك عن القتل والتعذيب والنفي الذي لم يتوقف شهراً طيلة أغلب فترات عهد الحكم العثماني لتونس، غير أن الإطار الزمني لهذه الدراسة يقتصر على عهدين فقط بدايةً من أيام حكم الأسرة المرادية 1631م وحتى منتصف حكم الأسرة الحسينية واقتراب نهاية الإنكشارية في تونس

1831م على أمل أن يكمل باحثون آخرون ما قد فاتني من عهود لم أتناولها في هذه المساهمة المتواصلة، والله من وراء القصد .

أهمية البحث:ـ

تأتي أهمية البحث في كونه يتحدث عن الجيش الإنكشاري الذي اعتمد عليه العثمانيون في تونس خلال الفترة الأولى من انتصابهم، وسرعان ما قام هذا الجيش بحركات عصيان تحمل في طياتها معنى التحدي للسلطان العثماني والدولة نفسها أولاً وللبايات وقياداته وأهالي الولاية ثانياً، وكيف ساهمت هذه الأحداث في خلخلة الإيالة إدارياً واجتماعياً واقتصادياً، ويرصد لنا جرأتهم ومكائدهم ومفاسدهم، وجبروتهم وأحقادهم وغيرها من الأمور المبعثرة ويجمعها في صفحات لتكُون صورة واضحة بقدر الإمكان عن تاريخ هذه الفئة المتغطرسة .

أهداف البحث: ـ

يسعى الباحث من خلال هذه الدراسة إلى تحقيق الأهداف الآتية :ـ

1 ـ إعطاء قراءة جديدة لموضوع إنكشاريي تونس اللاهثون خلف المال والشهرة والتعرف على أحوالهم ومعاناتهم وحكوماتهم في الإيالة خلال حقبة التاريخ الحديث .

2 ـ التعرف على أسباب تزايد خروجهم على القانون الذي يحتم عليهم تأمين الأهالي والمحافظة على سلامتهم، وما تترتب على خروجهم من نتائج سيئة أفقدتهم هيبتهم العسكرية .

3 ـ تكوين صورة شاملة عن أهم تمردات وثورات عساكر الإنكشارية داخل الإيالة وتعدياتهم على الشخصيات الحاكمة والأهالي عامة، وما ألحقوه من خراب بالإيالة، وأخيراً موقفهم من فكرة استبدال عناصر الجيش الإنكشاري والتي قادت إلى التخلص منهم .

إشكالية البحث: –

يمكن تلخيص إشكالية البحث في جملة من التساؤلات والتي كان من أبرزها :

هل كانت إنكشارية تونس تتشابه مع بقية إنكشارية الولايات الأخرى ولا سيما إنكشارية إيالات المغرب العربي ؟ أم أنها لم تنصاع للأوامر وكانت مشاغبة أكثر من غيرها ؟ وهل كانت هناك فرمانات سلطانية صريحة موجهة إلى البايات لضبط ومحاسبة الإنكشارية السائحة في الإيالة، وهل كانت ثوراتهم لأسباب سياسية أو لأسباب تتعلق بسوء المعاملة وعدم تقدير البايات لجهودهم أو لعدم حصولهم على الرواتب وتأخرها لمدة طويلة ؟ وهل كانت هذه الثورات منظمة ولها قيادات تتزعمها أم أن الأمر غير ذلك ؟

منهج البحث :–

اعتمد الباحث على استخدام المنهج التاريخي التحليلي للأحداث للوصول إلى حقائق تاريخية مدعمة بأدلة وبراهين، وكذلك على منهج دراسة الحالة الذي يختص بالأفراد والجماعات وتتم فيه جمع البيانات والمعلومات الدقيقة حول وحدة موضوع الدراسة وصولاً إلى نتائج منطقية .

محتوى البحث : –

تم تقسيم البحث على النحو الآتي : –

أولاً : أسباب هذه التّمردات والثورات إبان الفترتين " 1631 – 1831م ".

ثانياً : تمردات وثورات الإنكشارية حتى أواخر القرن الثامن عشر "1631 – 1783م".

ثالثاً : تمردات وثورات الإنكشارية في أواخر أيامها " 1783 – 1831م ".

أولاً : أسباب هذه التمردات والثورات إبان الفترتين"1631 – 1831م"

إن الجيش الإنكشاري(*) الذي وطأت أقدامه إيالة تونس وجد نفسه أمام واقع يأباه، وعبر عن ذلك الرفض في البلاد بإعلان التمرد والثورة(**)، ولم يكن اندلاعهما حادثاً منعزلاً بل شكل جزءاً من ظاهرة عامة في التمرد العسكري السائد في جميع الولايات العثمانية، بل وفي الامبراطورية العثمانية نفسها فقام إنكشاريوها بسلسلة متواصلة الحلقات من انتفاضات ومؤامرات ومذابح ابتداءً من أواخر عهد السلطان مراد الثاني (1421 – 1451م) عندما تنازل لأبنه محمد الفاتح[1] الذي لم يرضى به الإنكشاريون سلطاناً عليهم لصغر سنه وضعف شخصيته وعدم مقدرته على الحكم ، ثم تتالت مع مرور الزمن حتى وصل تطاولهم مداه إلى عزل وقتل الوزراء أو الصدور العظام بل وسلاطين الدولة مثلما فعلوا بالسلطان عثمان الثاني حيث عزلوه عن منصبه وأقدموا على قتله بمنتهى البشاعة سنة 1622م . وفعلوا مثل ذلك مع السلطان ابراهيم الأول فقاموا بخنقه [2] سنة 1648م . ولم يتوقعوا أن يأتي سلطان ويقمع تمرداتهم وثوراتهم ويضع حداً لاستهتارهم واستهانتهم بالسلاطين .

(*)**الإنكشاري** : اشتقت كلمة انكشاري في صيغة المفرد من مصطلح تركي معناه " الجندي الجديد " وينطق باللغة العثمانية يكي جرى " يني جرى " اسم مركب من كلمتين الأولى يني وتعني جديد والثانية جرى تعني العسكر أو الجند وعند ترجمة هذا الاسم " يني جرى " إلى العربية حرف نتيجة لاختلاف نطق الحروف إلى ينكرجيه ومن ثمّ انكشارية . والانكشارية طائفة عسكرية من المشاة العثمانيين يشكلون تنظيم خاص ولهم ثكناتهم العسكرية وشاراتهم ورتبهم وامتيازاتهم .للمزيد انظر :محمود شوكت ، التشكيلات والأزياء العسكرية العثمانية منذ بداية تشكيل الجيش العثماني حتى سنة 1820 م ، ترجمة يوسف نعيسه ومحمود عامر ، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، دمشق 1988م.

(**) **الثورة** : يقصد بها في هذه الدراسة تلك الحركات المسلحة التي قامت بها انكشارية تونس نتيجة لتراكمات من الظلم والتعسف والاستبداد والحرمان ، دفعها لرفع السلاح لتغيير الواقع الذي تشكو منه ، وكل ثورة تبدأ بتمرد الذي يعد هو الأخر كل حركة يقوم بها صاحبها لتغيير واقعها نحو الأفضل ، ولكنه لا يرقى إلى مرتبة الثورة .

1) علي محمد محمد الصلابي، **الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط** ، دار ابن كثير، دمشق، ط 3 ، 2008، ص 86.

2) سونيا محمد سعيد البنا ، **فرقة الانكشارية نشأتها ودورها في الدولة العثمانية** ، إيتراك للنشر والتوزيع ، القاهرة 2006 ، ص 339 .

غير أن ما حدث جاء مخيباً لأمالهم تماماً وبعكس ما كانوا يتوقعون عندما قرروا القيام بحركة تمرد واسعة وثورة جامحة ضد السلطان محمود الثاني سنة 1896م فكانت تلك آخر حركة عصيان لعناصر الإنكشارية[1] في تاريخ الدولة العثمانية وانتهى أمرهم بالهلاك .

ومهما بلغت ثورات الانكشارية وحالة الشغب التي عاشتها الدولة العثمانية في القرن الثامن عشر والتاسع عشر من قوة ، فإنها لم تبلغ حد العنف الذي بلغته في إيالات المغرب العربي عامة وإيالة تونس خاصة وذلك لعدة أسباب أهمها :

1 – لم تشهد إيالة تونس عصر الولاة الأقوياء " عصر العظماء " إسوة ببقية إيالات المغرب العربي[2] التي تميزت بوجود ولاة شجعان كان اغلبهم من رجال البحر والرياس وبموت هؤلاء العظماء والذي كان آخرهم قلج علي الذي توفي سنة 1578م انتهى عصر القوة أي عصر أمرة الأمراء[3] وتزامن ذلك العهد مع عصر القوة والعظمة العثمانية في حين إيالة تونس تأخر ضمها إلى ممالك الدولة العثمانية إلى ما بعد انتهاء هذا العهد وانتقلت مباشرة إلى عهد الباشوات ومن جاء بعدهم وجميعهم تراخوا أمام ضغط الإنكشارية عليهم نتيجة لضعف شخصياتهم ولجهلهم بأسلوب الحكم والإدارة وظهر ذلك للعيان بشكل واضح، فباستثناء عهد مراد كورسو مؤسس الأسرة المرادية والمعروف بمراد الأول (1631 – 1631م) وعهد ابنه الباي محمد المعروف بحمودة (1631 – 1658م) اللذان أظهرا مقدرة كبيرة على تطبيق القانون وفرضا النظام على الجميع ، وسجلا صفحة طيبة عن تاريخ بايات تونس[4] ، فإنه لم يظهر في الفترة الممتدة (1631 – 1831م) أي سلطان قوي توفّرت لديه الشجاعة على ضبط الإنكشارية والوقوف بوجهها التي بدأت تتقاعس عن أداء مهامها العسكرية واندفاعها على اتباع سبل مختلفة تتنافى مع تنظيمها .

---

1) محمد كمال الدسوقي ، **الدولة العثمانية والمسألة الشرقية** ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة 1976 ، ص 113 .

2) محمود علي عامر، **تاريخ المغرب العربي الحديث الجزائر–تونس**، منشورات جامعة دمشق، 2008 – 2009، ص156.

3) عقيل لطف الله نمير ، **تاريخ الجزائر الحديث**، منشورات جامعة دمشق ، 2007 – 2008 ، ص 96 .

4) ابن ابي دينار (محمد بن ابي القاسم) ، **المؤسس في أخبار افريقيا وتونس** ، دار الميسرة ، لبنان ، ط 3 ، 1993، ص 232 – 234 .

2 – عمدت الدولة العثمانية إلى التسامح مع الإنكشارية المرابطة بإيالة تونس بل كل إيالات المغرب العربي حيث تركوا لها حرية التصرف بشؤون الإيالة دون الرجوع إلى رأي السلطان العثماني [1]، وربما لبعد هذه الإيالة عن مركز الدولة العثمانية ولوقوع هذه الإيالة بالقرب من المناطق المناوئة للدولة التي تشن حرباً دائمة . والتدخل مباشرة من السلطة المركزية سيدفعها إلى تحمل تكاليف مالية باهظة ودون تحقيق أي مكسب هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن إعطاء حرية التصرف لهؤلاء الجند من الإنكشارية سيجعلهم يتمتعون بنفوذ قوى لفرض سلطتهم على أهالي الإيالة [2] الذين قد يفكرون في الانفصال عن الدولة العثمانية لذلك لم تتلق تلك البايات أي أوامر بضبط العساكر الإنكشارية التي استغلت هذه التنازلات منذ البداية للتمادي والتطاول على الأهالي والولاة ومعارضتهم في كثير من الأمور ، وبهذا التسامح أيضا استشعرت الإنكشارية بقوتها ومكانتها في الإيالة وجعلها تغالي في طلباتها وتحقيق جميع مطالبها بلا استثناء وخاصة عندما شعر العساكر بأنهم قدموا أعمال بطولية أمام العدو الخارجي وتأديبهم للقبائل المتمردة في الداخل فأصابها الغرور والشعور بالتميز، وهذه الأوهام التي رسخت في أذهانهم غيرت من أخلاقهم فمالوا للسلب والنهب والقمع[3]، وابتعدوا عن الضبط والربط العسكري، وأصبحوا لأتفه الأسباب يحتجون ويقودون التمردات والثورات لترويع الأهالي وإرهاب السلاطين .

3 – محاولة بايات تلك الفترة تشكيل فرق عسكرية من العامة وهذا غير مقبول ومرفوض من الإنكشارية باعتباره يحد من نفوذها ويقلل من دورها، وهذا ما زاد العداوة والقطيعة بين الانكشارية والبايات بل شمل الحقد كل الولاة المرسلين إلى الإيالة سواء الذين تميزوا بقوة شجاعتهم، وانعدام ثقتهم بالإنكشارية ويجاهرون بقتل أفرادها المشاغبة، أو الذين تميزوا بضعف الإرادة، وعجزوا عن القيام بأعباء الحكم وما خلفوه وراءهم من الفوضى أيام

1) محمود علي عامر : محمد خير فارس ، **تاريخ المغرب العربي الحديث " المغرب الأقصى – ليبية** " منشورات جامعة دمشق، ط 4 ، 2007 – 2008 ، ص 165 .

2) أرشيف رئاسة الوزراء ، استانبول ، إرادة داخلية رقم 47923 تاريخ جمادي الآخرة 1921 م .

3) أماني بنت جعفر بن صالح الغازي ، **دور الانكشارية في إضعاف الدولة العثمانية** ، دار القاهرة ، 2007 ، ص 177 .

حكمهم الفاسد، فسارعت الإنكشارية دفاعاً عن مصالحهم إلى إعلان[1] الثورات لمنع الغير من التمتع بامتيازاتها .

4 – إن بعض ضباط الإنكشارية أنفسهم كانوا سبباً مباشراً في توسيع دائرة الفوضى وتعميق الصراع بين الجند فعلاوة على تسلطهم لاحتكار القرار والامتيازات على حساب الجند والاهتمام بمصالحهم الخاصة اعتمدوا أسلوب الرشوة والظلم منهجاً لهم ، فقد أذاقوا الجند الإنكشاري كؤوس الذل والهوان بل كانوا يقابلونهم بالاحتقار والاستهزاء الذي وصل إلى حد تكليفهم بالاهتمام والعناية بخيل ضباطهم[2]، وكان ذلك آخر ما يتحمله الجند الذين تدرعوا بأن قدومهم للإيالة كان بدافع الجهاد ضد الإسبان وليس لإطعام الخيول وأن إحساسهم بهذه الإهانة وهذا الابتزاز دفعهم لرفع عصا الطاعة والخروج على قادتهم وممارساتهم التي لا تطاق .

5 – الأوضاع السياسية المتردية في الإيالة كانت سبباً أساسياً في زيادة لهيب ثورات الإنكشارية، فالتطاحن على السلطة بين البايات المراديين وبعض الدايات الذين تعاقبوا على الحكم من سنة 1737م وحتى سنة 1705م لم يستطيعوا أن يحتفظوا لأنفسهم بالنفوذ وتضاءلت سلطتهم أمام سلطة البايات التي أخذت تقوى يوماً بعد يوم،[3]حتى أصبح هذا المنصب وراثياً، وكذلك الصراع بين المراديين أنفسهم ولم يتمكن أي منهم حسم الأمر لصالحه، واستمرار الحرب الأهلية سنوات عدة بينهم ومحاولة الطبقة العسكرية التركية استعادة نفوذها، وصعب التوافق بين مصالح الأطراف المتناقضة هذا بالإضافة إلى قيام حرب بين إيالتي الجزائر وتونس وخاصة في عهد البايين مراد بن محمد والمعروف بمراد الثالث (1696 – 1702م) وابراهيم الشريف[4] (1702 – 1705م)، وكذلك

---

1) الشيباني بنبلغيت، **الجيش التونسي في عهد محمد الصادق باي 1859 – 1882م** ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة صفاقس ، 1995 ، ص 47 .

2) محمود علي عامر ، **تاريخ المغرب العربي الحيث " الجزائر – تونس** " مرجع سابق ، ص 208 .

3) السيد رجب حراز ، **العالم العربي في التاريخ الحديث** ، دار النهضة العربية ، مصر ، 1981 م ، ص 83 .

4) عمار بن خروف ، **علاقات الجزائر السياسية مع تونس في عهد الدايات " 1671 – 1830** " رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة دمشق – كلية الآداب 1995 – 1996 ، ص 124 .

بين إيالتي تونس وطرابلس في سنة 1704م[1] وقد تكبّدت تونس نتيجة الافتتان على السلطة بين البايات والدايات والحروب ضد الجزائر وطرابلس خسائر كبيرة في الأرواح والأموال والعتاد ،كان لها أسوأ الأثر على جميع الأوضاع ، فعمّت الفوضى وتمزقت أوصال البلاد وضعفت السلطة المركزية مما شجع الإنكشارية على العصيان ضد قيادتها عامة والفرمانات السلطانية خاصة ، واندفعت إلى حمل السلاح باعتباره الحل الوحيد المعبر عن معاناتها [2] من تلك الأوضاع المزرية .

6 – تـدهور الحياة الاقتصادية بعد أن عرفت بعض الانتعاش في عهد الداي يوسف[3] (1610 – 1631م)، فقد ساءت بعد ذلك بسبب الأزمة النقدية التي انتشرت في كافة أنحاء الامبراطورية حيث انخفضت قيمة العملة انخفاضاً شديداً وبدأ التلاعب فيها فأصبحت عملة مغشوشة،[4] وبالتالي فقدت قيمتها الشرائية وتأثرت جميع الإيالات العثمانية بما في ذلك إيالة تونس من تراجع قيمة النقود المتـداولة مما أدى إلى بروز الريال الأسباني في الإيالة على حساب العملات الأخرى[5] وخاصة خلال القرن الثامن عشر ، وأصبحت المرتبات النقدية للانكشارية لا تكفي لسد حاجاتها ولكي تعوّض قيمة مرتباتها لابد من قبول الرشوة ونهب الأموال والمطالبة بزيادة الرواتب والمنح ، في حين خزينة الإيالة فارغة[6] بسبب تناقص عائدات الضرائب التي كانت تجبى من داخل الإيالة فضلاً عن تقلص المداخيل المتأتية من النشاط البحـري[7] (القرصنة) التـي كانت تدر على الخزينة مبالغ مالية ضخمة ، ناهيك عن نهب البايات المستمر لأموال الخزينة مما ادى بالتالي إلى

1) شارل فيرو، **الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي** ، ترجمة محمد عبدالكريم الوافي ، جامعة قاريونس، بينغازي 1994 م ، ص 246 .

2) محمود علي عامر ، **تاريخ المغرب العربي الحديث " الجزائر – تونس"** ، مرجع سابق ، ص 165 .

3) محمد الهادي الشريف، **تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال**، سراس للنشر ، تونس، 2008، ص 77.

4) أماني بنت جعفر بن صالح الغازي ، مرجع سابق ، ص 169 .

5) نبيهة السلطاني، **القوى العسكرية القارة بتونس وتكاليفها المالية من 1756م إلى 1814م**، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة تونس الأولى ، 1999 ، ص 36 .

6) أرشيف رئاسة الوزراء ، استانبول ، دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / 12 / ص 571 .

7) دلندة الأرقش وأخرون ، **المغرب العربي الحديث من خلال المصادر** ، مركز النشر الجامعي 2003 م ، ص 61 .

عجزها في أكثر من مرة عن دفع رواتب الجند الإنكشاري وارتباك اقتصاد الإيالة تبعاً لذلك، ومما زاد الطين بلة تزامن كارثة الجفاف ومحنة تفشي الوباء مع الأزمة المالية الخانقة، مما أدى إلى غلاء رهيب في أسعار المعيشة وخاصة في سنوات الجفاف وما سببته من مجاعة كسنتي 1783 م – 1784م وكان آخرها مجاعة سنة 1805م[1]، والبؤس نفسه خلال سنوات ظهور وباء الطاعون الذي كاد يكون مستمراً في الفترة الممتدة بين سنتي 1700– 1705م، وبإضافة إلى وباء تلك السنوات عرفت سنوات (1783م – 1784م – 1800م) وباء مماثلاً[2] ولم يتمكن أغلب بايات تلك الفترة من تغطية العجز المالي وإنقاذ الخزانة من إفلاسها المالي، كما أخفقوا في تحسين الدخل المادي للإنكشارية التي حمّلتهم مسؤولية تـردي تلك الأوضاع، والتي عبرت عن ذلك بطريقتها الخاصة برفع راية العصيان، ولم تمهلهم الوقت الكافي للعمل على انعاش مختلف جوانب الحياة فكانوا عرضة لتمرد الإنكشارية، وكانت النتيجة النهاية الكئيبة والمأساوية لأكثر البايات[3] وخاصة الذين تداولوا على كرسي الحكم في النصف الأول من القرن الثامن عشر فقد دفعوا حياتهم وذهبوا ضحية لطغيان الإنكشارية .

ثانياً: تمردات وثورات الإنكشارية حتى أواخر القرن الثامن عشر (1631–1783م)

بعد مضي أربعون سنة من سيطرة نظام الدايات (1590 – 1631م) على الإيالة وذلك عندما انتزعوا الحكم من الباشوات بانقلاب عسكري، تمكنوا من خلاله فرض سلطتهم الكاملة بفضل دهائهم السياسي على غير المنضبطين[4] وبالتالي توقفـت مشاغبات الضبـاط وتجاوزات الجند ، وعاد الهدوء والاستقرار في الإيالة، غير أن ذلك الهدوء والاستقرار لم يدم طويلاً فبعدما نجح مراد الأول 1631م من انتزاع الحكم من

1) نخبة من الأساتذة الجامعيين ، **تونس عبر التاريخ** ، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية ، تونس ، الجزء الثاني ، 2007 م ، ص 239 .

2) المرجع نفسه ، ص 239 .

3) عمار بن خروف ، مرجع سابق ، ص 118 .

4) محمد الهادي الشريف ، مرجع سابق ، ص 72 .

الدايات وبدون انقلاب عسكري معلناً بذلك بداية عهد البايات ومن بعده ابنه حمودة باي (1631 – 1658م)، والذي ذهب أشواطاً بعيدة في إلزام الانكشارية بالطاعة، وبرحيل هذا الأخير سنة 1656م[1] انعدم الأمن ودخلت البلاد في فوضى من جديد وعادت الانكشارية إلى سابق عهدها في عزل وقتل من شاءت ، وذلك بسبب بداية نشوء الخلاف الحقيقي بين البايات والدايات مع وصول مراد بن حمودة المعروف بمراد الثاني (1658 – 1675م) وفي عهده غدا نفود الباي أقوى من نفود الداي والباشا[2]، وأصبح يتصرف تصرف الحاكم بأمره فذهب إلى حد إقالة الدايات من مناصبهم،[3] ولكن الذين تداولوا على هذين المنصبين ظلوا يعملون على استعادة النفود الذي فقدوه، مما جعل أمر المنافسة بين أصحاب هذه المناصب شيئاً مؤكداً ، فبعدما عين الباي مراد الثاني الداي شعبان سنة 1669م، بدأ هذا الأخير في إثارة الفتن للإطاحة بالباي مراد الثاني ومنذ ذلك الحين بدأ الصراع السياسي على أشده وساءت أحوال الإيالة ومنذ ذلك الحين أيضاً أدارت الإنكشارية ظهرها لحكومة البايات بعد أن استغلت تلك الاضطـرابات والفـوضى التـي غدت شبه متأصلة في الإيالة، فأعلنت تمرداتها، وكانت البداية مع الداي شعبان خوجة ويعد هذا فاتحة تمرداتها في عهد البايات المراديون، فقد تجرءوا للظهور عليه بأسلحتهم بحجة الفوضى التي عمت كافة أحكامه وأعماله إضافة إلى اتهامه باختلاس أموال الخزينة على الرغم بتظاهره بالطيبة وحب النظام[4] إلا أنها كانت أسباباً كافيةً لدى الإنكشارية للتخلص منه لتنفيذ مآربها والمطالبـة بحقوقها، وأصبحـت تتحين الفرصة المناسبة حتى استطاعوا في سنة 1672م من اقتحام مقر إقامته بالقصبة فقبضوا عليه وانتهى تمردهم بعزلة ونفيه إلى بلدة زغوان ودون أن يقتلوه، وتهدئة لنفوسهم وترضية لهم

1) حسن حسني عبدالوهاب ، **خلاصة تاريخ تونس** ، الدار التونسية للنشر ، 1980 ، ص 168 .

2) عمار بن خروف ، مرجع سابق ، ص 51 .

3) محمد الهادي الشريف ، مرجع سابق ، ص 79 .

4) عزيز سامح التر، **الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية**، ترجمة عبدالسلام ادهم، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، 1969، ص 305 .

عين الباي مراد الثاني الحاج محمد منتشالياً مكانه،[1] وقامت الإنكشارية بمبايعته والترحيب به في بداية الأمر ولم تمضي ثلاثة أشهر على تولي منتشالي لهذا المنصب الجديد حتى أستقر رأي الإنكشارية بالتمرد عليه هو الأخر[2] لضعف شخصيته ولإدارته العاجزة، وربما أيضاً لتباطئه في تنفيذ أوامرهم، فقد انتهزوا فرصة خروج الباي من الإيالة لإخضاع إحدى القبائل الثائرة، كما استغلوا أيضاً نجاح تمردهم السابق دون أن يوقع الباي مراد الثاني عليهم العقاب الذي يستحقونه، لذلك وبدون خوف قاموا بأعمال أكثر جرأة فألقوا القبض على الداي الجديد محمد منتشالي ونفوه هو الآخر إلى بلدة زغوان ولحق بمن سبقه بنفس الشكل، وما هي إلا ساعة حتى عينوا مكانه من كانوا يريدونه وهو الحاج علي لاز[3] ولم يخشوا من عاقبه هذا التصرف ليتولى هذه المهمة وبدون علم الباي مراد الثاني الذي يحترق شوقاً للانتقام من الإنكشارية ورؤسائهم وأخذ يتحين الفرصة المناسبة لمعاقبتهم وتأديبهم فخاف قادة المؤامرة السابقة من انتقام الباي مادمه على كرسي الحكم وخوفهم أيضاً من زيادة تأزم الأوضاع بين البايات والدايات آنذاك، فالأوضاع غير مطمئنة. وأنذرت الغيوم الملبدة في سماء الإيالة أن مأساة كبيرة ستحدث إذا وصلت المواجهة بينهما إلى حد استخدام القوة وأنه هلاك لا محالة للانكشارية، عندها اغتنم الإنكشاريون فرصة خروج الباي مراد الثاني إلى إنهاء التمرد الذي وقع بجبل وسلات[4] غربي القيروان، وقرروا وقبل فوات الأوان إعلان الثورة والدخول في مواجهة معلنة ضد سلطة الباي وضرورة عزله للتخلص من شروره، وحتى يتم لهم تنفيذ ما قرروه طلبوا المساعدة من الداي الجديد وهو الحاج علي لاز المحبوب لديهم والذي يدرك أن الإنكشارية هي من عينته وفي أي لحظة تعزله ، لذلك لا مفر إلا الموافقة وإرضاء رغباتهم رغماً عن أنفه، وفي عجالة جهز قوة من عساكر الانكشارية وهاجم بهم قصر الباي مراد الثاني ولم يكتفِ عند هذا الحد بتنفيذه

1) كامل باشا ، التاريخ العثماني ، استانبول ، 1329 هـ ، مجلد (1) ، ص 219 .

2) ابن أبي دينار ، مصدر سابق ، ص 242 .

3) عزيز سامح الترـ ، مرجع سابق ، ص 305 .

4) حسن حسني عبدالوهاب ، مرجع سابق ، ص 169 .

لهذا القرار الخطير بل سارع إلى ملاحقة الموالين للمرادين بالعاصمة وصادر أموالهم[1] جهاراً وعلى مسمع الناس ، الأمر الذي عجل بدفعه إلى القبر .

وحينما علم مراد باي نبأ ثورة الانكشارية وهو عائدٌ في طريقه إلى العاصمة أسرع بالسير وبوصوله دارت معركة طاحنة بين الطرفين عرفت باسم (واقعة الملاشين)[2] سنة 1673م وقتل الداي على لاز في هذه المعركة ولاذت الانكشارية بالفرار وتحصنوا بإحدى الثكنات فلاحقهم وقطع كل الرؤوس المدبرة ونفي ما بقي منها وهدم الثكنة التي تأويهم وحولها إلى مدرسة[3] " المدرسة المرادية " وهكذا استطاع مراد الثاني إخماد هذه الثورة ببراعة .

وحول وصف الصراع القائم وأحداث هذه الثورة سجل قنصل فرنسا خلال ربيع 1673م ((أن الأتراك قد جاهروا عائلة البايات ذوي القوة والبأس بالعداء فقد قرّر أتراك تونس يقودهم داي حازم على أن يطيحوا بالبايات المراديين فسار البايات وكانوا عندها على رأس المحلة يقودون حملة عناصرها من الأهالي قاصدين مدينة تونس وشتّتوا شمل جند الداي وحملوا على أعدائهم الأتراك حملة منكرة وكان ذلك في جوان 1673م))[4] .

وعلى الرغم من عنف هذه الثورة إلا أن حظ الباي كان أحسن من غيره، فلم تصل إيادي الانكشارية إليه، ونجاح إخماده لثورتهم كان بمثابة انتصار نظام البايات وتفوقه على نظام الدايات والانكشارية وهذا لا يعني أن عناصر الانكشارية توقفوا عن تمرداتهم وثوراتهم فقد استمرت تجاهر بالعداء وازداد طغيانهم وبطشهم أكثر من ذي قبل فبعد وفاة مراد الثاني سنة 1675م تعرضت الإيالة إلى عدة اضطرابات لا سيما الصراع على السلطة بين الأخويين محمد بن مراد وشقيقه علي من جهة وعمهما محمد الحفصي من جهة أخرى، فضلاً عن الصراع الذي نشب بين الدايات التي عينتهم الدولة العثمانية بالإضافة إلى

1) دلندة الأرقش وأخرون ، مرجع سابق ، ص 60 .

2) عزيز سامح التر ، مرجع سابق ، ص 305 .

3) مجموعة من المؤلفين ، **الجيش التونسي** ، نشر وزارة الدفاع الوطني ، تونس ، 1996 م ، ص 64 .

4) محمد الهادي الشريف ، مرجع سابق ، ص 79 .

تدخل ولاة الجزائر حومة الصراع [1] واشتد الجور وكثرت التصرفات الاعتباطية أو المزاجية، وكل هذه المستجدات ساعدت على ظهور التمردات العنيفة ففي سنة 1680م تمرد إنكشاري والإيالة علـى الباي ابن مراد الثاني وذلك بسبب تأخر مرتباتهم[2] فقط وليس لقطعها، لأنهم تعودوا لأتفه الأسباب يهبو لرفع السلاح في وجه كل من يعترض طريقهم فينتقموا منه .

ومع مرور الأيام اختلفت طريقة الانتقام والعقاب عن سابقتها فلم يتم العزل أو النفي، بل وصل تطاولهم إلى قتل البايات وارتكاب المجازر البشعة كما حدث للباي مراد الثالث الذي تولى حكم الإيالة في سنة 1696م وسرعان ما أعلنوا تمردهم ضده وذلك لسببين :

أولهما: السيرة الظالمة التي اتبعها هذا الباي فكانت سيئة للغاية، وذلك لما ارتكبه من فظائع ومذابح دمـوية حيث كان يقتل أي شخص لمجرد الظن أو من غير سبب، ولديه سيف اسمه البالة[3] لذلك كان يشهر بمراد بوبالة، كما أنه أطلق يد حليفه باشا طرابلس على القيروان فنهبها، بل وأمر أهلها بتخريب مدينتهم بأنفسهم[4]، وكان ينتزع المال من الناس بالقوة فعانى أهالي الإيالة والإنكشارية من ظلمه وبطشه، وصار غير مرغوب فيها من افعاله الذميمة .

ثانيها: تمثل في عناد وإصرار الباي مراد الثالث على قيادة حملة موجهة إلى الجزائر بما كان لديه من قوات، ولم يكن الإنكشارية راضية على الدخول في مواجهة غير متكافئة مما أدخل اليأس في نفوس عناصرها الذين استنفذت طاقاتهم نتيجـة للهزائم المتكـررة أمام الجزائريين كان آخرها سنة 1700م قرب قسنطينة[5] وفرارهم إلى الكاف ناهيك عن مواصلة القتال ضد القبائل المحلية المتمردة، ونتج عن ذلك كثرة الموت في صفوفهم وحالة

1) محمود علي عامر ، **تاريخ المغرب العربي " الجزائر – تونس"** ، مرجع سابق ، ص 177 .

2) دلندة الأرقش وأخرون ، مرجع سابق ، ص 415 .

3) حسن حسني عبدالوهاب ، مرجع سابق ، ص 174 .

4) محمود علي عامر ، **تاريخ المغرب العربي " الجزائر – تونس "** ، مرجع سابق ، ص 178 .

5) عزيز سامح التر ، مرجع سابق ، ص 327 .

التعب والارهاق الشديد التي كان يعاني منها بسبب المسافات الطويلة التي كان يقطعها، وربما أيضاً انتابهم شعور كبير بالخوف من الجيش الجزائري المتحصن بقواته ، باعتباره في حالة دفاع ، لذلك اقتنع الجميع بأن الحل الوحيد هو أن يدفع الباي حياته ثمناً لتشتبه برأيه، ولهذه المحاولة الجريئة كلفت الإنكشارية إبراهيم الشريف أغا الصباحية(*) آنذاك بتزعمها ووضعوا ثقتهم فيه[1] فرتب نفسه، وامرهم بالصمت وانتظار اللحظة المناسبة وهم في الطريق بوادي الزرقاء(**) بباحة متجهين إلى تلك الحملة أصدر أوامره بتطبيق الخطوة الأخيرة من الخطة، فتوقف الجيش فجأة ، وقبل أن يشهروا سيوفهم الحادة في وجه الباي مراد الثالث عرف هذا الأخير بعد فوات الأوان بأن الإنكشاريين ليس باستطاعتهم التقدم أو التحرك خطوة واحدة إلا في اتجاه تونس، ولم يعد بمقدوره حينها تحريك ساكن أو فعل أي شيء في ذلك الوادي إلا البكاء على ما جنته يداه والاستسلام للإنكشارية التي التفت حوله وقتلته وكان ذلك في سنة 1702م[2]. ولم ينتهِ التمرد عند هذا الحد بل قاموا بعد عودتهم إلى تونس بارتكاب ثاني أبشع جرائمهم وهي قتل كل أفراد أسرته[3] واقاربه أيضاً وبذلك عاقبت الانكشارية المذنب وغير المذنب على حد سواء .

واستمر الحال على هذه الوثيرة إلى سنة 1705م والتي شهدت انتقال السلطة إلى الأسرة الحسينية والإطاحة بالأسرة المرادية وقد خيل لعساكر الإنكشارية بأن استلام حسين بن علي الحكم 1705م في الإيالة سيجلب لهم استقرارً سياسياً يحققون من خلاله طموحاتهم ويتمتعون بجميع حقوقهم دون أن يتعرض أحد لهم بالأذى ، غير أن ما حدث جاء مخيباً لآمالهم تماماً وبعكس ما كانوا يتوقعون ، فقد تفاقمت الاضطرابات السياسية

---

*) **الصباحية** : وهم فيلق من الفرسان بمثابة الجندرمة .

1) عمار بن خروف ، مرجع سابق ، ص 121 .

) **وادي الزرقاء : قرية سياحية تونسية تبعد عن العاصمة حوالي 100 كم ، تقع بين مجاز الباب وجنوب شرقي مدينة باجة ، وهي تابعة إدارياً لولاية باجا ، وسميت بوادي الزرقاء تيمناً برجل صالح كان له فرس سماها الزرقاء وكلما سأل عنها قيل له تسرح في الوادي ومن تم جاء تسمية وادي الزرقاء .

2) البارون ألفونس روسو، **الحوليات التونسية " مند الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر** "، ترجمة محمد عبدالكريم الوافي، منشورات جامعة قاريونس ، بنغازي ، 1992 ، ص 151

3) اوغست كور ، **منشأت السلاطين** ، استانبول ، 1954 ، ص 358 .

منذ الأيام الأولى لتوليه ، فبدأ الصراع بينه وبين الداي محمد خوجة الصفر الذي استهان بسلطة الباي[1] وأصبح هذا الأخير يظهر أنه صاحب الأمر في الإيالة، ولم يكن أمام الباي للتخلص من هذا المنافس إلا القيام بجمع كل الضرائب من المناطق الداخلية والأمر بعدم تسليمها إلى الداي محمد الأصفر، مما جعل هذا الأخير عاجزاً عن سداد رواتب الإنكشارية ، وطلب الداي محمد الأصفر من قادة الإنكشارية أن تطالب برواتبها مباشرة من الباي حسين بن علي فلم تستمع إليه، وقررت الإنكشارية إلى العودة لإعلان تمردها ضد هذا الداي الذي حاول أن يطلب من قنصل فرنسا مساعدته بتوفير سفينة فرنسية لمغادرة الإيالة بأهله وممتلكاته لكن القنصل رفض ذلك، ولم يكن أمام الداي محمد الأصفر إلا الهروب إلى زاوية سيدي بن عروس(*) للاحتماء بها ومع هذا لاحقته الإنكشارية في كمينه وقامت بقتله وتقطيعه إرباً وكان ذلك في سنة 1706م[2].

ولم ينتهي تمردها حتى قام الباي حسين بن علي والديون بوضع اليد على ممتلكات الداي المقتول وفتح صناديقه واستلام منها رواتبها المتأخرة بكاملها [3] .

كما شهدت الإيالة خلال فترة تولي علي باي (1740 – 1756م) أيضاً فوضى عارمة لم تشهد لها مثيلاً والذي يعد من أكبر الطغاة الذين مارسوا سياسة الغطرسة والوحشية بعد أن أغتصب العرش بقوة السلاح، وبالغ كثيراً في انفراده بالسلطة وتمادى في ظلمه للانكشارية وصادر الكثير من الأموال، وجميعها كانت أسباباً كافية لإعلان التمرد عليه في سنة 1743م[4] وكان يدرك الباي أنه أمام خصم عنيد ، والمواجهة تتطلب أساليب قمعية اعتاد عليها والتي ساعدته على إنهاء هذا التمرد ومعاقبة كل الذين تجرأوا على ذلك .

---

1) عمار بن خروف ، مرجع سابق ، ص179 .

*) **زاوية سيدي بن عروس** : تأسست هذه الزاوية سنة 1435 م على يد السلطان الحفصي أبو عمر عثمان وهي تقع في شمال تونس ، وولاية بن عروس التي تقع فيها الزاوية تشكل مع الولايات الأخرى منطقة تونس الكبرى .

2) M . H . CHERIF, POUVOIR SOCIETE DANS IA TUNISIE DE HUSAYN BIN ALI (1705 – 1740), PUBLICATIONS DE IUNIVERSITE DE TUNIS , QUATRIEME SERIE : HISTOIRE VOLUME XXX , 1984 , P 139

3) IBIDI, P 139 .

4) محمد الهادي الشريف ، مرجع سابق ، ص 85 .

وهذا لا يعني أن عناصر الانكشارية توقفوا عن تمرداتهم وغيروا أفكارهم أو حسنوا أخلاقهم بعد هذه الهزيمة بل زاد إصرارهم على التحدي والمواجهة ففي سنة 1752م، خرجت غاضبة وفي وضح النهار تسلب وتنهب في أسواق وفنادق الإيالة بل داهموا بيوت الأهالي الذين لا حول لهم ولا قوة ، وكذلك بيوت اليهود والفرنسيين وأحدثوا دماراً وخراباً كبير في المدينة ، بل وصل بهم الأمر إلى انتهاك أعراض نساء الإيالة[1].

وهكذا تحولت الإنكشارية عن مبادئها وانحرفت عن الهدف الذي أنشأت من أجله ولا يستطيع أحد معارضتها لشدة بطشها .

وبموت علي باي وتولي حمودة باي (1783 – 1814م) الذي تمكن من إعادة الهدوء والاستقرار لعدة سنوات بفضل خبرته وشجاعته ومرونته[2]، أدركت الإنكشارية في بداية الأمر أنها أمام باي قوى مقتدر فالتزمت بالهدوء النسبي ولكن في السنوات الأخيرة من حكمه بدأ خوف الانكشارية يتلاشى بالتدرج حتى عادت إلى ما كانت عليه .

ثالثاً: تمردات وثورات الإنكشارية في آواخر أيامها (1783 – 1831م):

استهلت سنة 1783م بنذير شؤم للإنكشارية التي أحيطت علماً بأن هناك استعدادات هائلة تجرى في الإيالة لتطبيق حزمة من القرارات التي جاء بها الباي حمودة (1783 – 1813م) عازماً على تنفيذها دون أن يتأمل النتائج التي ستترتب على ما عزم عليه ، نراه يقرر إيقاف تجنيد العناصر إلى صفوف الإنكشارية والكف عن استجلابهم من المشرق وإقصاء عناصرها على المناصب العسكرية والتقليص من وظائفهم لعدم ثقته في ولائهم والإكثار من تجنيد القولوغليه(*) الذين كان يثق بهم[3] وتسليمهم القيادة العسكرية، ونراه أيضاً يعزز من المنظومة العسكرية بالعنصر التونسي أبناء البلد من

1) البارون الفونص روسو ، مرجع سابق ، ص 208 .

2) محمد الهادي الشريف ، مرجع سابق ، ص 88 – 89 .

*) **القولوغليه** : مصطلح اطلق في العهد العثماني على كل الأبناء الناتجين من زواج الإنكشارية الأتراك من نساء المغرب العربي (الجزائر – تونس – ليبيا) المحليات ، والمصطلح مركب من كلمتين عثمانيتين الأول (كل) بمعنى عبد والثانية (أوغلو) بمعنى ابن فيأتي المعنى كاملاً بعد الجمع أبناء العبيد ووفقاً لفلسفة الحكم عند العثمانيين يعني أبناء عبيد السلطان العثماني .

3) البارون الفونص روسو ، مرجع سابق ، ص 290 .

الصبايحية والمزارقية(*) وفرق الزواوة(**) كل هذه المستجدات أشعرت الإنكشارية بضعف موقفها وحرمانها من زيادة قبضتها على مقاليد الأمور ، وبدأت تثير مخاوفها من الغد الذي يحمل في طياته أحداثاً مؤكدة على أن الباي ينوي التخلص منها فغضبت ورفضت وهاجت وقررت القيام بثورة عارمة ولكن هذه المرة ليست لطلب الرواتب أو حقوقها المادية وإنما دفاعاً عن مسألة تواجدها وكيانها[1]، لذلك بدأت تترقب ساعة الخلاص من هذا الباي الذي أصبح مكروهاً ، وعلى الرغم من أنها لم تكن الحاثة الأولى إلا أن القيام بمثل هذا العمل لم يكن بالأمر السهل فقام الإنكشاريون بخطوة أولية تمهيداً لثورتهم العازمين على تنفيذها وهي القيام بسلسلة تمردات لجس نبض الباي ومن بينها تمرد سنة 1797م ، عندما قاموا بمحاولة اغتيال القنصل البريطاني عند رجوعه من قصر الباي [2] وفي السنة الموالية هدد عناصر الإنكشارية بقتل جميع الفرنسيين المقيمين في الإيالة تعبيراً منهم عن مساندة السلطان العثماني في حربه ضد نابليون بونابرت، بالإضافة إلى عدم صمودهم في الحـرب الأولى سنة 1806م مع الجزائر مما نتج عنه الهزيمة الكبرى لجيش الباي،[3] وجاءت الخطوة الثانية وهي البحث عن خطة مدروسة لإزالة الرأس المدبر لهذه التغيرات وهو الباي، واختيار أميراً بينهم يحكم الإيالة بعد الإطاحة بالباي. باعتبار أن حمودة كان يأتي في كل يوم جمعة من باردو للصلاة في مسجد الزيتونة بالمدينة فرسمت الخطة على هذا الأساس، بترقب قدومه إلى المدينة ومحاصرته وقت الصلاة داخل المسجد وسرعة الانقضاض عليه وقتله، ثم التوجه بسرعة للوصـول إلى قصـر باردو لاغتيال جميع أفراد الأسرة الحسينية الحاكمة[4] والقضاء عليها نهائياً وإرجاع السلطة للجيش الإنكشاري، واتفقوا على صباح يوم الجمعة الموافق 30 أغسطس 1811م هو موعد التنفيذ وإعلان

---

*) **المزارقية** : وهم فرسان القبائل المخزنية .

) **الزواوة : هم جند من أبناء البربر الوافدين إلى تونس من منطقة القبائل .

1) محمود علي عامر ، **تاريخ المغرب العربي الحديث " الجزائر – تونس "** ، مرجع سابق ، ص 210 .

2) نخبة من الأساتذة الجامعيين ، مرجع سابق ، ص 236 .

3) المرجع نفسه ، ص 236 .

4) عزيز سامح التر ، مرجع سابق ، ص 381 .

الثورة المسلحة، ولكن لحسن حظ هذا الباي أن لم يأتِ في هذا الموعد إلى المدينة وربما لإصابته بوعكة صحية كما تشير بعض الدراسات[1]، أو لاكتشاف خيوط المؤامرة، ومهما يكن من امر فإن في ذلك اليوم دخل وقت الصلاة والباي لم يأتِ مما أربك الخطة وأحست الإنكشارية بأن الباي على علم بخططهم، والتراجع عن تنفيذ هذه الثورة يعني سحقهم من قبل الباي وسيبطش بهم مع أول فرصة ، ولم يكن أمامهم إلا العزم على رفع السلاح قبل فوات الأوان وتطبيق مخططهم[2]، وعندما خيم الظلام بدأ الثائر ونبأ إطلاق الرصاص من بنادقهم إعلاناً لثورتهم ومباشرة الهجوم على المدينة والقيام بأعمال التنكيل والإرهاب حيث دمرت المحلات التجارية ونهبت، واقتحمت المنازل وسلبت، وأحرقت أغلب ممتلكات الإيالة وخربت[3]، وفي منتصف تلك الليلة الطويلة المظلمة بدأوا في المسير إلى القصبة وتجمعوا هناك أغلب الثائرون فيما يزيد عن 2500 انكشاري وقرروا الدخول إليها وذلك للاستيلاء أولاً على السلاح الموجود بها ، وثانياً للاحتماء بها ، وبالاتفاق مع زملائهم إنكشاريي حراس القلعة ، تم فتح الأبواب على مصرعيها لهم[4] فقاموا أولاً بإنزال علم الإيالة ورفع العلم الأخضر على أنهم لا يتبعون إيالة تونس وأنهم من رعايا الدولة العثمانية ، وثانياً سارعوا إلى المدافع فأطلقوا عدة طلقات إيذاناً بإعلانهم لنجاح الثورة وإشارة للعناصر المتمركزة في المناطق البعيدة كحلق الواد وبنزرت، وسوسة والكاف والساحل، وماهي إلا لمحة عين حتى سارع انكشاريو حلق الواد لنهب منزل الكاهية[5] وأعلنوا الثورة ، واتبعهم انكشاريو باقي المناطق المذكورة ولبوا النداء .

كما أن هذه الطلقات ولصوتها الرهيب تمكنهم من إلقاء الرعب والفزع في قلب الباي وأيضاً لترويع الأهالي الذين طال صبرهم إلى الصباح فحملوا أسلحتهم وهبوا لسحق

1) البارون ألفونص روسو ، مرجع سابق ، ص 291 .
2) عزيز سامح التر ، مرجع سابق ، ص 382 .
3) لبارون ألفونص روسو ، مرجع سابق ، ص 292 .
4) عزيز سامح التر ، مرجع سابق ، ص 382 .
5) نخبة من الاساتذة الجامعيين ، مرجع سابق ، ص 236 .

الإنكشارية[1] ورأوا للمرة الأولى ربما أن الدفاع عن نظام الباي دفاع عن قضية البلاد ، لذلك ظلوا إلى جانب الباي الذي انزعج هو الآخر من هذا التصرف، وانصب غضبه على الإنكشارية فجمع قواته المكونة من المخازنية(*) والزواوة وأرسلها لمساعدة الأهالي وزحف الجميع باتجاه القلعة ودام التراشق بالرصاص بين الطرفين ما يقارب عن الثماني ساعات ابتدأت من ساعات الصباح الأولى ، ولكن دوام الحال من المحال فقد بدأت تنفد الذخائر من قوات الإنكشارية[2] وبدأ الارتباك في صفوفها ومما زاد الأمر سوءاً مساعدة الجميع وتأييدهم لمشروع الباي وهو سحق الإنكشارية، وكذلك تصويب نيران المدافع المكثفة باتجاه القلعة المتواجدين بداخلها، لذلك لم يعد بمقدور الإنكشارية إلا انتظار ساعات الليل وهبوط الظلام للتسلل والهروب من جحيم القلعة إلى دواخل البلاد[3]، غير أن هذا الأمر كان يتوقعه الأهالي والباي فباشروا بملاحقة من فر منهم ، وأصبح أمل نجاة الهاربين ضعيف ومع ذلك حاول الإنكشاريون الفارين إلى آخر لحظة للإفلات بأرواحهم بالتوجه إلى مرسى طبرقة لمغادرة الإيالة بحراً، ولكن دون جدوى إذ قامت قبائل العربان بقطع عليهم طريق الوصول إلى المرسى[4] وبالتالي الانسحاب إلى (وادي الطين) الواقع على مشارف ماطر[5]، وهناك تعرض عناصر الإنكشارية الفارين إلى هجوم مباغت من فرسان الصباحية عدوهم اللدود ، وبعد أن دارت المعركة رحاها تكبدت الإنكشارية خسائر فادحة فقتل من عناصرها 600 جندي[6]، أما الباقون في القلعة والمكلفين بحراستها ومن بقي من العناصر المتمردة في القلعة ولم يلجؤا إلى الفرار، فلم يكن حظهم بأحسن من سابقيهم فأمر الباي بإبادتهم على بكرة أبيهم فقطعت رؤوسهم جميعاً بدون

1) البارون ألفونص روسو ، مرجع سابق ، ص 292 .

*) **المخازنية** : وهي فرقة الجيش الاحتياطي الذي كان يجند من بين قبائل المخزن وقياداته دائماً تركية أو عجلية .

2) محمود علي عامر ، **تاريخ المغرب العربي الحديث " الجزائر – تونس "** ، مرجع سابق ، ص 211 .

3) البارون ألفونص روسو ، مرجع سابق ، ص 294 .

4) عزيز سامح التر ، مرجع سابق ، ص 383 .

5) البارون ألفونص روسو ، مرجع سابق ، ص 294 .

6) عزيز سامح التر ، مرجع سابق ، ص 383 .

رحمة ولا شفقة[1] وأغرق تلك الثورة في بركة من الدماء وأطفأ بذلك لهيب نار ثورة سنة 1811م في ظرف وجيز[2]. والتي تعد من أخطر ثورات الإنكشارية خلال فترة قيد الدراسة ، فلم تقتصر نتائجها السيئة على الباي الذي نجى منها بأعجوبة بل تعداه الأمر إلى الأهالي الذين توقفت حياتهم وعاشوا في قلق وخوف وذعر .

وعلى الرغم من الكارثة التي حلت بالإنكشارية، وانخفاض أعدادها وكسر شوكتها والأيام العصيبة التي مرت عليها والتي مهدت بداية النهاية لعهد الإنكشارية إلا أنها لم تؤد إلى تهدئتها بل زاد من هياج عناصرها المنزعجة أصلاً وأصبحوا في حالة هيجان عام، ولم يعد بمقدورهم تحمل ظلم الباي وخطره الذي بات يهددهم وإهانة الأهالي والقولوغلية على حد سواء لهم . الأمر الذي دفعها إلى تدبير محاولة أخرى لتحقيق كامل أهدافها ، وعليها مراعاة الدقة والحزم منعاً لتكرار ما سبق ، أي اتباع سياسة جديدة تتخطى كل السلبيات التي ترتبت على ثورتها الأولى ومن أهمها: الخطة التي لم تكن مدروسة بشكل جيد والتي لم يكتب لها النجاح ، وعدم توفر زعامة قادرة على قيادة الثورة ، وفكرة تهديد الباي بالقتل، ومسألة نهب المدينة وما ترتب عليها من انعكاسات ، وآخرها اختيار التوقيت الغير مناسب وهذا ما أجبرها في هذه المحاولة الجادة إلى كتم مشاعر الغيظ والرغبة في الانتقام إلى سنة 1816م عندما اعتقدوا أن الظروف التي تشهدها الإيالة في هذه السنة مواتية لإعلان ثورتهم المدبرة فجاءت محاولتهم الثانية بعدما اقتنصت عدة فرص ومن أهمها:-

1 – استغلال مقتل الوزير الأول يوسف صاحب الطابع سنة 1815م عندما تولى محمود باي الحكم في الإيالــة فصور له أن هذا الوزير يوسف يحيك مؤامرة ضده، ودون تحقيق أمر بقتل هذا الوزير الذي كان من الشخصيات البارزة ، فتدرعت الانكشارية بمقتله لرفع راية ثورتها الثانية[3] .

1) البارون ألفونص روسو ، مرجع سابق ، ص 294 .

2) المنطقة العربية للتربية والثقافة والعلوم، **الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية**، المجلد الخامس، تونس، 2007م، ص296.

3) محمود علي عامر ، **تاريخ المغرب العربي الحديث " الجزائر – تونس "** ، مرجع سابق ، ص 211 .

2 – حدوث خلاف بين محمود باي وأخيه اسماعيل فانتهزت الانكشارية التي لم تقتنع بحكم الباي محمود وفضلت تعيين من تحب، وهو الأمير إسماعيل ليتولى مهمة الباي[1] بدون علمه أو حتى استشارته والإطاحة بالباي السابق .

3 – وصول اللورد إكسماوث : قائد الأسطول الانجليزي – بأسطوله في 12 ابريل سنة 1816م إلى تونس، والذي يطلب بتسريح الأسرى النصارى بدون فدية، ومنع القرصنة، وإلغاء الرق وقد خضع الباي لجميع هذه الشروط[2] التي فرضها الإنجليز وسارت الأمور وفق هواهم ، واعتبرت الانكشارية ذلك إذلالاً مخز لكل فئات إيالة تونس سببه موافقة الباي باعتبارها دفعت دمائها فداءً لحماية المسلمين وكان على الباي على الأقل تقدير ذلك باستبدال أسرى النصارى بأسرى مسلمين .

4 – سياسة الباي المالية المتطاولة وما قام به عند زيارة ملكة انجلترا لتونس في نفس السنة والمبالغة في إكرامها والاحتفاء بها[3]. فالبذخ والإسراف الذي كبده لخزينة الإيالة رأت الانكشارية أنه السبب في إفلاس الخزينة التي كانت تعاني من شح الأموال أصلاً .

استغلت الإنكشارية كل هذه الفرص المواتية لإعلان ثورتها في أول مايو سنة 1816م بعد أن اتفقوا على زعيمين لقيادة هذه الثورة وهما دالي باش ومحمد الشوبان (الرأس المجنون)[4] فاندلعت شرارة الثورة عند الساعة العاشرة من ليلة الاربعاء عندما أمرا القائدان لهذه الثورة الجند الإنكشاري بالخروج والتفرق في شوارع المدينة للشروع في القبض على كل الشخصيات المناصرة للباي والسيطرة على الإدارات الرئيسة للمدينة والتعهد بعدم نهبها أو دمارها[5] وبعدم التعرض للباي بالتهديد أو القتل ثم التوجه بسرعة إلى الديوان لتعيين الأمير اسماعيل بدلاً من أخيه محمود باي .

---

1) عزيز سامح التر ، مرجع سابق ، ص 391 .

2) المرجع نفسه ، ص 391 .

3) محمود علي عامر ، **تاريخ المغرب العربي الحديث " الجزائر – تونس "** ، مرجع سابق ، ص 211 .

4) المرجع نفسه ، ص 211 .

5) البارون ألفونص روسو ، مرجع سابق ، ص 294 .

وعلى الرغم من الانضباط والتنظيم الجيد الذي صاحب بداية هذه الثورة إلا أن هناك أموراً لم تأخذ في الحسبان ولم تكن متوقعة ومن أهمها الخلاف الذي حدث بين زعيمي الثورة [1] اللذان وصلا إلى نقطة اللاعودة ، كما أن المرشح لمنصب الباي وهو أسماعيل باشا الذي لم يوافق على فكرة الإنكشارية بالانقلاب على شقيقه ، هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد تراجعت إنكشارية حلق الواد عن قرارها الصادر بمدها للإنكشارية المتحصنة في القلعة ساعة الثورة بالسلاح والعتاد اللازم للهجوم به على قصر باردوا الذي تعهدت به منذ البداية بتقديمه[2] عندما سمعت أن إسماعيل باشا عارض هذه الثورة وقراره بعدم الاشتراك مع الإنكشارية فقررت هي الأخرى بعدم مشاركتها في هذه الثورة، الأمر الذي أربك المشهد أكثر ، فزاد خوف عناصر الإنكشارية وندم أكثرهم على قرار التمرد وفجأة قرروا التوقف هم أيضاً وعدم المشاركة[3]، بل وصل الأمر إلى إلقاء القبض على زعيمي هذه الثورة وصفدوهما بالسلاسل وسلموهما للباي محمد الذي قام بإعدامهما مع عدد آخر من المتمردين مع التوعد بالإبادة لما تبقى منهم والبالغ عددهم قرابة 1200 إنكشاري،[4] وهؤلاء لم يكن أمامهم إلا الهروب في ليلة اليوم الثاني إلى حلق الواد والتفكير من هناك في الهروب عن طريق البحر، وبالفعل عند وصولهم لم يعد هناك مجال للتلكؤ والتأجيل فاستولوا على خمسة من السفن الأميرية للهروب على متنها وقبل مغادرتها المرسى قاموا بعملية انتقام لعلها تشفي غلايلهم فهجموا على بيوت الأهالي وأصبحت مرتعاً لهم، والأمر نفسه بالنسبة لمنشآت الترسانة البحرية ومخازن المرسى التي لم يغادروها حتى أضرموا النار فيها وأخيراً أتلفوا مدافع الحصون وخربوها[5] وعندها ركبوا السفن واقلعوا من المرسى وتغلغلوا في البحر واستقر رأيهم على القيام بعملية القرصنة في البحار، باشروا بالسطو على مراكب النصارى والعثمانية ولما وصل الخبر للدولة العثمانية أصدرت أوامر تؤكد على

1) محمود علي عامر ، **تاريخ المغرب العربي الحديث " الجزائر – تونس "** ، مرجع سابق ، ص 212 .

2) عزيز سامح التر ، مرجع سابق ، ص 392 .

3) البارون ألفونص روسو ، مرجع سابق ، ص 326 .

4) عزيز سامح التر ، مرجع سابق ، ص 392 .

5) البارون ألفونص روسو ، مرجع سابق ، ص 326 .

ضرورة القبض على أي شخص يقيم بمثل هذه الأعمال غير القانونية ومعاقبته أشد عقاب، وضرورة مصادرة السفن المذكورة والبحث عنها فوراً ، ومن صدور ذلك القرار بدأ الأسطول العثماني يتجول في البحار وما هي إلا أيام حتى تم القبض على تلك السفن[1] التي تحمل هؤلاء الانكشارية المارقة عن القانون وانتهى أمر هذه المحاولة ورجع الهدوء للإيالة وقل خطر الانكشارية بعد هذه الضربات الموجعة .

وهكذا شاءت الظروف وسخرت الأقدار لعناصر الإنكشارية بأن تفشل ثورتهم الثانية مثل سابقتها على الرغم من النجاح الذي حققوه في بدايتها، غير أن المستجدات التي حدثت عجلت بنهاية الثورة بل سارعت إلى ظهور دلائل جيدة أخذت تشير إلى تعذر استمرار هذه الفوضى وتنبئ بقرب حدوث عاصفة تعجل بنهاية نظام الإنكشارية برمته، وإنشاء جيش جديد ليحل محلها في الإيالة خاصة واستانبول عامة ، وهذا ما حدث في نهاية الأمر فعلاً ففي استانبول تم القضاء عليها نهائياً على يد السلطان محمود الثاني سنة 1826م[2] .

أما في الإيالة فقد جرت عدة محاولات لإبعاد الإنكشارية والتخلص منها بسبب المشاكل التي كانت تحدثها باستمرار وتعويضها بعناصر محلية كقوة بديلة منذ أواخر عهد حمودة باي الحسيني (1783 – 1813م)، وتوالت بعده في عهد محمود باي (1814 – 1824م) وحسين باي (1824 – 1835م) وفي عهد هذا الأخير أصبح الأمر جدياً فقد حل الفرق الانكشارية سنة 1829م[3] وانتدب عوضاً عنها القولوغليه وتخلى عن كل انتداب في الخارج وقد شرع فعلاً في تركيب الجيش النظامي الجديد في السنة نفسها فبدأ بجمع الشباب من ديوان الجند المتبتين في الديوان وضم له عدداً آخر من أبناء البلد حتى وصل عددهم إلى 1000 عسكري آنذاك ، وجلب لهم معلماً من فرنسا لتدريبهم حسب النظام العسكري الأوروبي الحديث[4] .

1) عزيز سامح التر ، مرجع سابق ، ص 393 .

2) كامل باشا ، مصدر سابق ، ص 470 .

3) الشيباني بنبلغيث ، مرجع سابق ، ص 48 .

4) نخبة من الأساتذة الجامعيين ، مرجع سابق ، ص 289 .

وهكذا فإن العملية التي اقتصرت على إضعاف فرق الإنكشارية وإحداث شكل آخر أقل خطراً من العناصر العسكرية الموجودة في عهد هذا الباي لم تكتمل بشكل واضح إلا مع صعود المشير أحمد باي سنة 1837م حيث تمت هذه الفكرة وأزاح كابوس الإنكشارية وخلص البلاد والعباد من شرورها إلى الأبد .

الخلاصة

إن الظروف الداخلية والخارجية لإيالة تونس خلال النصف الأول من القرن السابع عشر وحتى بداية القرن التاسع عشر دفعت الإنكشارية التي تزايد عددها وتعاظم نفودها إلى القيام بسلسلة من التمردات والثورات والمذابح ، ساهمت في اتساع دائرة الفوضى وزعزعة أمن الإيالة ، وبالتالي أساءوا هؤلاء الثائرون إلى سمعة الدولة العثمانية لدرجة أن الأهالي نظروا إلى الأتراك على أنهم لا يختلفون عن غيرهم وشعروا بأنهم ارتكبوا خطأً كبيراً لطلبهم النجدة منهم بغية تخليصهم من الأسبان ،فالإنكشارية أزاحت الخطر الإسباني فعلاً إلا أن خطرها هي ظل جاثماً على البلاد التونسية ما يقارب عن قرنين ونصف ، لكن بعد أن أدار الفلك دورته وكشر الزمن عن أنيابه تم إزالتها من الوجود والتخلص من خطرها نهائياً .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : الوثائق غير المنشودة :

1 – أرشيف رئاسة الوزراء ، استانبول ، إرادة داخلية رقم 47923 تاريخ جمادي الآخرة 1921 م .

2 – أرشيف رئاسة الوزراء ، أستانبول ، دفتر مهمات الديوان الهمايوني رقم 12 .

ثانياً : المصادر العثمانية :

1 – أوغست كور ، منشآت السلاطين ، استانبول ، 1954 م .

2 – باشا : كامل ، التاريخ العثماني ، استانبول ، مجلد (1) ، 1329 هـ .

ثالثاً : المراجع التركية المترجمة إلى العربية :

1 – عزيز سامح التر ، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية ، ترجمة عبدالسلام ادهم ، دار لبنان للطباعة والنشر ، بيروت ، 1969.

2 – شوكت : محمود ، التشكيلات والأزياء العسكرية العثمانية منذ بداية تشكيل الجيش العثماني حتى سنة 1820 م ، ترجمة يوسف نعيسه ومحمود عامر ، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، دمشق 1988 م .

رابعاً : المصادر والمراجع العربية :

1 – الأرقش دلندة وآخرون ، المغرب العربي الحديث من خلال المصادر ، مركز النشر الجامعي ، ميديا كم 2003 م.

2 –البنا : سونيا محمد سعيد ، فرقة الانكشارية نشأتها ودورها في الدولة العثمانية ، إيتراك للنشر والتوزيع ، القاهرة 2006.

3 –الدسوقي : محمد كمال ، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة 1976 .

4 – الشريف : محمد الهادي ، تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال ، سراس للنشر ، تونس 2008 .

5 – الصلابي : علي محمد محمد ، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط ، دار ابن كثير ، دمشق ، بيروت ، ط 3 ، 2008 .

6 – غازي : أماني بنت جعفر بن صالح ، دور الانكشارية في إضعاف الدولة العثمانية ، دار القاهرة ، 2007 .

7 – المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية ، المجلد الخامس ، تونس ، 2007 م .

8 – ابن ابي دينار (محمد بن ابي القاسم)، المؤسس في أخبار افريقيا وتونس ، دار الميسرة ، لبنان ، ط 3 ، 1993 .

9 – بنبلغيت: الشيباني ، الجيش التونسي في عهد الباي محمد الصادق 1859 – 1882 م ، مؤسسة التميمي ، زغوان ، تونس ، 1995 م .

10 – حراز : السيد رجب ، العالم العربي في التاريخ الحديث الجزء الأول ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، 1981 م .

11 – عبدالوهاب : حسن حسني ، خلاصة تاريخ تونس ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، 1980 .

12 – عامر : محمود علي ، فراس : محمد خير ، تاريخ المغرب العربي الحديث " المغرب الأقصى " ليبيه ، منشورات جامعة دمشق ، ط4 ،2007– 2008 م.

13 – عامر : محمود علي ، تاريخ المغرب العربي الحديث ، " الجزائر – تونس " ، منشورات جامعة دمشق 2008 – 2009 م .

14 – مجموعة من المؤلفين ، الجيش التونسي عبر العصور ، نشر وزارة الدفاع الوطني ، تونس ، 1996 م .

15 – نخبة من الأساتذة الجامعيين ، تونس عبر التاريخ ، الجزء الثاني ، منشورات مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية ، تونس ، 2007 م .

16 – نمير عقيل لطف الله ، تاريخ الجزائر الحديث ، جامعة دمشق ، 2007 – 2008 م .

خامساً : المراجع الأجنبية المترجمة إلى العربية : –

1 – روسو :البارون ألفونص ، الحوليات التونسية " منذ الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر " ، ترجمة محمد عبدالكريم الوافي ، منشورات جامعة قاريونس ، بنغازي 1992.

2 – فيرو : شارل ، الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي ، ترجمة محمد عبدالكريم الوافي ، جامعة قاريونس ، ببنغازي ، 1994 م

سادساً : المراجع باللغة الفرنسية :

1 – M . H . CHERIF , POUVOIR SOCIETE DANS IA TUNISIE DE HUSAYN BIN ALI (1705 – 1740), PUBLICATIONS DE IUNIVERSITE DE TUNIS , QUATRIEME SERIE : HISTOIRE VOLUME XXX , 1984 .

سابعاً : الرسائل الجامعية :

1 – السلطاني : نبيهة ، القوى العسكرية القارة بتونس وتكاليفها المالية من 1756 م إلى 1814 م ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة تونس الأولى ، 1999 – 2000 م .

2 – خروف : بن عمار ، علاقات الجزائر السياسية مع تونس في عهد الدايات " 1671 – 1830 " رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة دمشق – كلية الآداب 1995 – 1996 م .